التهـويد الثقـافى والإعـلامى
لمدينة القدس وتـراثها

الدكتور
خـالد عـزب

التهويد الثقافى والإعلامى
لمدينة القدس وتراثها

يدرس الطفل الإسرائيلى القدس وتراثها من وجهة النظر اليهودية ، وذلك فى إطار تبرير الوجود اليهودى فى فلسطين ، والذى نراه ملخصا فى كتاب (ديفيد الصغير) بصورة تعكس كيف يغرز اليهود ما لديهم من معتقدات لأطفالهم . وفى هذا الكتاب تتلخص قصته التاريخية فيما يلى : (فى ذلك العام ، فى أورشاليم (القدس) ، كان ديفيد صغيرا جدا ، عندما هدم الرومان وأحرقوا هيكل سليمان الرائع . وبناء على أوامر الإمبراطور تيتوس ، قام الرومان بالقتل والنهب . وقطع جنودهم بضربات سيوفهم القوية رؤوس الأطفال الصغار ، ولم يتركوا إلا بعض الحجارة المنضدة والتى نسميها حائط المبكى . وبما إن ديفيد يركض سريعا فقد أفلت من الجلادين الرومان وهو يقول: العام القادم فى أورشاليم ..). تلك صورة مصغرة من غرز الثقافة الإسرائيلية فى نفوس الأطفال .

ولكن هناك بعد آخر وهو إكساب الرؤية اليهودية لمدينة القدس طابعا علميا ، وهذا يبدو من خلال نشاط الجامعات والمؤسسات الإسرئيلية ، فبالرغم من تسليم الأثريين اليهود بفشلهم فى العثور على حجر واحد من حجارة أية بناية تنسبها التوراة إلى النبى سليمان على الرغم من مرور عشرات السنوات من التنقيبات الأثرية المكثفة فى العديد من المواقع بالقدس ، والتى ستبين الدراسة طبيعة بعضها . بالرغم من هذا كله فقد أظهرت المجلة الجغرافية الإسرائيلية فى عدد خاص لها البعد العلمى لبناء هيكل

سليمان فى موضع قبة الصخرة . وصدور هذا العدد من مجلة علمية معترف بها فى الغرب يوحى بجدية وأصالة الادعاءات الإسرائيلية ، بل ويستخدم هذا العدد كمرجع للمقالات الصحفية والبرامج التليفزيونية .

ولذا ، بات علينا أن نكتشف صورة المجتمع الإسرائيلى من الداخل وموقفه من قضية إعادة بناء الهيكل ، وحقيقة هذا الهيكل . وهل يحق لليهود إعادة بنائه ؟وهل للهيكل موقع ثابت ومقدس فى العقيدة اليهودية؟. حيث يرى الباحث أن الهيكل ليس له موضع ثابت مقدس فى العقيدة اليهودية ، وتثبيته جاء كأسطورة بثها اليهود بعد السبى البابلى كنوع من مقاومة الذوبان فى المجتمع الذى هاجروا إليه . خاصة مع وجود شكوك فى قدسية القدس كمدينة لدى اليهود .

وتكتمل هذه الصورة مع المخططات الإسرائيلية للسيطرة على آثار القدس القديمة بل والاستيلاء على بعضها ، وهو ما سيوضحه البحث . وهذا كله يأتى فى إطار تطويق القدس بقدس جديدة بحيث تذوب المدينة القديمة سكانا وتراثا فى المدينة الجديدة ولتبتلعها ويصبح من الصعب فصل المدينتين ، بل والبحث عن وثائق المدينة الإسلامية لنفى ملكيتها كما حدث حين سرقت بعض وقفياتها .

ونرى صورة أخرى من صور التهويد الثقافى والإعلامى حين تنشر اللوحات التى رسمها الرحالة الأوروبيون لمدينة القدس ، فنجد إحدى دور النشر حينما تنشر لوحات ديفيد روبرت الرحالة الإسكتلندى الشهير ، تصحبها بصور معاصرة لأرض فلسطين والقدس تبين الفارق بين الفضاء فى القرن ١٩ والوضع بعد الاحتلال الإسرائيلى وكأنها رسالة موجهة تريد أن تقول منها: أن الأرض المقدسة لدى اليهود والمسيحيين أرض التوراة والعهد الجديد كانت فضاء يحتاج إلى من يعمره .

كل هذا يقدم صورة مختلفة عن رؤيتنا لقضية القدس بصفة خاصة وفلسطين بصفة عامة . لذا باتت المواجهة الإعلامية والثقافية حتمية ، بل يجب أن يكون ضمن بنود مفاوضات السلام بين العرب وإسرائيل مطالبات عربية خاصة بالمناهج الدراسية فى

إسرائيل ، وكذلك مطالبات خاصة بإلغاء قانون العودة لليهود وطبيعة منح الجنسية الإسرائيلية ، هذا إن كانت إسرائيل تبحث عن سلام حقيقى مع العرب .

لقد فهم عبد الملك بن مروان أهمية القدس كمدينة مقدسة لدى المسلمين والمسيحيين . لذا كان تشييده مبنى قبة الصخرة بنقوشه التى تحمل آيات من القرآن خاصة بالديانة المسيحية رسالة إعلامية موجهة إلى مسيحى القدس الموالين للدولة البيزنطية ، والدولة البيزنطية هدفها إعلامهم بأنه فى ظل الصراع الأموى البيزنطى فإن القدس مدينة إسلامية يحكمها المسلمون أحفاد العرب مؤسسى المدينة . لذا بات علينا أن نوجه رسائل مماثلة لليهود والمسيحيين البروتستانت الذين يساندون اليهود فى ادعاءاتهم . ولكى تكون هذه الرسالة ذات مغزى علمى وإعلامى جيد سنطرح لها بعض المقترحات :

- يجب دراسة الدراسات الإسرائيلية ودراسات المعهد الأميركى للآثار بالقدس وتخصيص منح دراسية لذلك للأثريين الشبان ، خاصة الدراسات التى تتعلق بعصور ما قبل التاريخ التى يحورها اليهود اليوم لمصلحتهم . وكذلك يجب دراسة طبوغرافية مدينة القدس عبر العصور من خلال الآثار والوثائق التاريخية ، حيث إن ما أنجزه الباحثون العرب فى هذا المضمار غير دقيق وغير كاف . مع تقديم دراسات وافية لتراث القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث .

- ضرورة تعزيز المواقع العربية والإسلامية الخاصة بالقدس على الإنترنت بهذه الدراسات .

- نوجه نداء لاتحاد الجامعات العربية بتخصيص الموسم الثقافى فى الجامعات العربية هذا العام للقدس . وكذلك إعداد كتيب للتلاميذ فى المدارس العربية عن القدس يكون ضمن مقررات مادة التاريخ .

- تكليف كل من منظمة المدن العربية ومنظمة العواصم والمدن الإسلامية لتنظيم مؤتمر عالمى فى غزة أو إحدى مدن الضفة الغربية للقدس وتراثها المعمارى كوسيلة إعلامية لبيان أهمية هذه المدينة للمسلمين .

التهويد هو عملية نزع الطابع الإسلامى والمسيحى عن القدس، وفرض الطابع الذى يسمى (يهوديا) عليها . وتهويد القدس جزء من عملية تهويد فلسطين ككل ، ابتداء من تغيير اسمها إلى (ارتس يسرائيل) ، مرورا بتزييف تاريخها ، وانتهاء بهدم القرى العربية وإقامة المستوطنات ودعوة اليهود للاستيطان فى فلسطين[١] .

وقد بدأت عملية التهويد منذ عام ١٩٤٨م وزادت حدتها واتسع نطاقها منذ يونية ١٩٦٧م . وقد ارتكزت السياسة الإسرائيلية على محاولة تغيير طابع المدينة السكانى والمعمارى بشكل بنيوى؛ فاستولت السلطات الإسرائيلية على معظم الأبنية الكبيرة فى المدينة واتبعت أسلوب نسف المنشآت وإزالتها لتحل محلها أخرى يهودية ، كما قامت بالاستيلاء على الأراضى التى يمتلكها عرب وطردهم وتوطين صهاينة بدلا منهم .

يعد التهويد الثقافى والإعلامى أحد المحاور الهامة فى مخططات تهويد القدس ، ويمس هذا التهويد تراث المدينة بدرجة كبيرة ذلك لأنه التعبير الحى عن هويتها . لذا بات التراث هاجسًا يمس بصورة يومية المقولات اليهودية الدارجة حول المدينة ، بل تحول مؤخرا إلى قلق دائم لدى اليهود . وهم يحاولون من آن لآخر الإجابة على التساؤلات المطروحة أمامهم حول تاريخ القدس وتراثها ومدى يهوديتها . وللتهويد الثقافى والإعلامى صور شتى ، منها : التربوى ، ومنها ما يمس مفاهيم ماهية القدس وحدودها، ومنها ما يتعلق بتزييف الحقائق التاريخية حول مدى قدسية القدس لدى اليهود ومنها ما يمس حقيقة الهيكل وهل له مكان ثابت مقدس يجب أن يبنى فيه ؟

تعتبر التربية عاملا حيويا فى بث الأفكار والمعتقدات لدى الشعوب . لذا كان اليهود حريصين على بث ما يؤيد ادعاءاتهم فى القدس وفلسطين من خلال المناهج الدراسية وقصص الأطفال ، ومن ذلك ما يروى فى قصة (ديفيد الصغير) بصورة تغرس أصالة الوجود اليهودى حيث تروى القصة ما يلى : (فى ذلك العام ، فى أورشليم – القدس – كان ديفيد صغيرا جدا ، عندما هدم الرومان وأحرقوا هيكل سليمان الرائع.

---

(١) عبد الوهاب المسيرى (دكتور) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، ج٤ ، ص ١٢٧ . دار الشروق ١٩٩٩م .

بـناء على أوامر الإمبراطور تيتوس ، قام الرومان بالقتل والنهب . وقطع جنودهم[١] بسيوفهم القوية رؤوس الأطفال الصغار ، ولم يتركوا إلا بعض الحجارة المنضدة والتى نسـميها حائط المبكى) . و(بما أن ديفيد الصغير يركض سريعا ، وهو كذلك يتمتع بالدهاء ، فقد أفلت من الجلادين الرومان . ابتدأ اليهود الذين خرجوا أحياء بالانتشار فى العـالم ، وهـذا الهرب فى كل يسمى الدياسبورا) . (ها هم اليهود دون وطن ، لكـن ديفـيد الصغير يقول: العام القادم فى أورشليم) . (وبعد الرومان جاء الغزاة البيزنطـيون ، ثم الفـرس ، ثم الصليبيون الذين هم فرنسيون وإنجليز وألمان ، وزعموا بأنهم هنا لتخليص قبر المسيح . كانوا يحملون صلبانا على صدورهم وعلى سيوفهم ، كانوا رهبانيين ، فقتلوا كثيرا من اليهود ، وليبرروا عملهم احتجوا بأنهم لم يميزوا بينهم وبـين العـرب . ولمدة طويلة جدا كان الاحتلال التركى ، وترك الباشاوات اليهود يقـبلون حائط المبكى، كما بنوا سورا جميلا حول أورشاليم ، ومازال ديفيد الصغير دون وطن ، لكنه يقول العام القادم فى أورشاليم) .

ولكـن هناك بعد آخر وهو إكساب الرؤية اليهودية لمدينة القدس طابعا علميا ، وهـذا يبدو من خلال نشاط الجامعات والمؤسسات الإسرائيلية ، فبالرغم من تسليم الأثريين اليهود بفشلهم فى العثور على حجر واحد من أية بناية تنسبها التوراة إلى النبى سليمان على الرغم من مرور عشرات السنوات من التنقيبات الأثرية الإسرائيلية المكثفة فى العديد من المواقع بالقدس ، إلا أنه لم يعثر على شىء ذى بال يؤكد يهودية المدينة ، وينسـب اليهود حجرًا عثر عليه بالقدس نقشت عليه أسماء الشهور بالحروف العبرية القديمـة المشتقة من الأبجدية الفينيقية إلى عصر النبى سليمان، وحجرًا آخر تدل نقوشه عـلى نسـبته للنبى حزقيا فى قناة مياه خارج القدس[٢] . وقد أدت نتائج الحفائر إلى جوار الحرم القدسى عن الكشف عن ثلاثة قصور أموية كانت مخصصة لإقامة الأمراء

---

(1) Xavier Antomarchi, Le Petit David, ou Israel Raconte Aux Enfants. Paris 1969, p. 4100.

- إبراهيم عبد الكريم ، قصة تأسيس إسرائيل كما تروى للناشئة اليهود ، ص ١٥١ ، مجلة شؤون عربية ، العدد ٧٦ ، ديسمبر ١٩٩٣م .

(٢) عبد الحميد زايد (دكتور) القدس الخالدة ، ص ٨٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م .

الأمويين الذين حكموا المدينة ، وهو ما مثل خيبة أمل كبيرة لدائرة الآثار الإسرائيلية التى تخضع لها المنطقة حاليا فضلا عن خيبة الجامعة العبرية وجمعية كشف إسرائيل التى قامت بالحفائر . وكانت الجمعية السابق ذكرها دعمت برنامج بنيامين مازار الأستاذ فى الجامعة العبرية والذى وضع مشروعا للكشف عن الطبقات الدنيا من الهيكل فى موضع الحرم القدسى الشريف وبالقرب منه ، وهو ما أدى إلى هدم العديد من الآثار الإسلامية فى مناطق الحفر ، و لم يعثر اليهود على أى أثر يعتد به يعود إلى عصر الهيكل المزعوم .

هكذا أتيحت لليهود وللباحثين عن الآثار وفقا لما جاء فى التوراة فرصة ذهبية للبحث عن مملكة إسرائيل فى القدس من خلال التنقيبات الأثرية ، ولكن نتائج حفائرهم لم تؤد إلى شيء ذى بال . بالرغم من هذا فهم يعطون مشروع إعادة بناء الهيكل اليهودى بعدا علميا ، فقد أصدرت الجمعية الجغرافية الإسرائيلية عددا خاصًا من مجلتها العلمية سنة ١٩٩٦ عن إعادة بناء الهيكل تضمن مقابلة مع مهندس يهودى حول عمارة الهيكل ، وأبحاث عن الهيكل الأول والهيكل الثانى ، وكذلك النماذج المعاصرة التى وضعت لبناء الهيكل فى موضع قبة الصخرة ، ودراسة أثرية مقارنة بين تصور هيكل هيرود وما هو موجود اليوم فى الحرم القدسى وينسبه اليهود إلى عمارة هيكل هيرود مثل الأقصى القديم وهو سلسلة من عقود تمثل قبوا أسفل المسجد الأقصى فضلاً عن حائط البراق[1] . وصدور هذا العدد من مجلة علمية معترف بها فى الغرب يوحى بجدية وأصالة الادعاءات الإسرائيلية ، بل ويستخدم هذا العدد كمرجع للمقالات الصحفية والبرامج التليفزيونية .

بل وامتد الأمر إلى إقامة معارض أثرية تضمنت بعض ما نتج عن حفريات القدس، ونسب إلى اليهود بطريق لى ذراع النتائج العلمية ، وتسويق هذه المعارض سياحيا يصاحبها أدلة بلغات عديدة ، وهو نوع من الدعاية الإعلامية التى تأخذ صبغة علمية (صورة رقم ١) .

---

(1) Eretz, The Geographic Magazine from Israel, Special Issue, 46, May 1996.

استعان اليهود بعلم الآثار كوسيلة لتدعيم تصوراتهم حول القدس؛ فاكتشاف الماضى يوفر عاملاً حاسمًا فى بناء الهوية السياسية أو تأكيد الحاضر ، وهو ما يوفره علم الآثار لليهود . ولذا نراهم يحرصون على أن تكون جميع الرموز الوطنية الإسرائيلية مستمدة من عناصر ذات طبيعة تراثية ، مثل : شعار الدولة ، والأوسمة والنياشين ، وطوابع البريد والنقود .

على الجانب الآخر، مازال العرب مغيبين فى مجال الدراسات الأثرية التى تتعلق بفلسطين خاصة فى عصور ما قبل التاريخ التى يركز عليها اليهود حاليا لإثبات وجودهم فى فلسطين بصفة عامة والقدس بصفة خاصة . بل إن التركيز على تراث المدينة الإسلامى لم يخرج عن الحرم القدسى ، ولذا بات من الملح الاهتمام بهذا المجال كجزء من الخطاب السياسى الإسلامى والعربى الخاص بالقدس ، فوضع خريطة طبوغرافية لتطور عمران القدس من عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث أمر حيوى ، خاصة إذا أردنا الحديث عن ملكيات الأوقاف الإسلامية فى المدينة التى استولت عليها إسرائيل . ومع توافر الوقفيات الأيوبية والمملوكية والعثمانية[1] التى توضح بالتفصيل الدقيق عمران المدينة فى هذه العصور وملكيات الأراضى والمبانى بها وبالمناطق المحيطة بها والتى أصبحت اليوم جزءًا لا يتجزأ من المدينة . إن هذا العمل لا شك سيكون مفيدا للباحثين وللسياسيين حين حديثهم عن المدينة كجزء من مقدسات وأملاك المسلمين التى لا يجوز التنازل عنها .

---

(١) توجد أعداد لا حصر لها من وقفيات المنشآت المعمارية فى القدس تصف العمائر الدينية وبصفة خاصة الحرم القدسى الشريف وأوقافه ، وكذلك المنشآت الدينية الأخرى فى القدس ، وما أوقف عليها من منشآت كالحمامات والوكالات والفنادق والخانات ، هذه الوقفيات متناثرة فى القدس حيث يوجد جزء منها ضمن وثائق الحرم القدسى المملوكية فى المتحف الإسلامى فى القدس ، والبعض الآخر ضمن سجلات محكمة القدس الشرعية ، والبعض الآخر فى القاهرة ضمن وثائق الوقف بوزارة الأوقاف المصرية . ومن أبرزها وثيقة وقف السلطان قايتباى التى تصف مدرسته بالقدس ، وهى محفوظة تحت رقم ٨٨٧ . والبعض الآخر فى استانبول ضمن حجج الوقف العثمانية ، وقد نشر بعض الباحثين نماذج من هذه الوثائق ، ولكن إلى الآن لم تول المؤسسات البحثية العربية أو الإسلامية عنايتها نحو نشر أبحاث كافية عن هذه الوثائق .

تزخـــر القدس بتراث معمارى فريد يبدأ من الحرم القدسى حتى باقى آثار المدينة التى تتنوع ما بين :

١ - بيمارســـتانات[١] ، ومن أشهرها البيمارستان الصلاحى الذى أقامه السلطان صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٨٣هـــ / ١١٨٧م ، بعد فتحه للقدس ، وقد رحل عن القدس تاركا القاضى ابن شداد ، ليعتنى بعمارة البيمارستان ، وقد وقفه صلاح الدين عـــلى كافة أبناء القدس ليعالجوا فيه مجانا ، ورتب فيه دروسا لتعليم الطب فيه ، وقد تعـــرض البيمارســـتان إلى زلزال فى القرن ٩هـــ / ١٥م ، و لم يتبق من البناء الأصلى للبيمارستان إلا جزء بسيط ، وهو يستخدم حاليا كبازار .

٢ - الخانـــات[٢] والأسواق والوكالات ، أحصى منها فى القدس الدكتور كامل جمـــيل العسلى ١٦ خانا[٣] ، وهو فر حصره يخلط بين الخانات القياسر وهى الأسواق المبنية والوكالات ، وهذا الخلط ناتج عن التداخل بين وظائف هذه المنشآت ، انتشرت هذه المنشآت بين أحياء المدينة وقد وقف ريعها على المنشآت الخيرية والدينية بالمدينة ، ومـــن أبرزها قيسارية السلطان التى أنشأها السلطان المملوكى برقوق سنة ٧٨٨هـــ . وســـوق القطـــانين الـــذى شيده الأمير المملوكى تنكز ، وهو يقع بالقرب من الحرم القدسى الشريف ، وخان الفحم ، وخان الخاصكية .

---

(١) بيمارســـتان ، لفظ فارسى مركب من بيمار أى مريض وستان بمعنى محل ، أى دار المرضى ، ويقال بيمرســـتان أو مارستان ، وهو مستشفى عام لمعالجة كافة الأمراض ، وقد عرفت هذه المنشآت منذ العصر الأموى .

محمد أمين (دكتور) وليلى إبراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، ص ٤٢ ، دار النشر بالجامعة الأميركية فى القاهرة ، ١٩٩٠م .

(٢) الخان ، فارسى معرب وهو الحانوت ، ويطلق على الدكان أيضا ، ثم توسعوا فى استخدامه فى الوثائق فأطلقوه على الوكالة والفنادق ، والخانات مبان خصصت لنزول التجار الواردين والبضائع المستوردة، وكذلك الزوار ، ولذا جاء تصميمها المعمارى كما يلى : طابق أرضى يتكون من حواصل وحوانيت لعرض وتخزين السلع قد يلحق به مسجد ، وجوابق علوية لإقامة التجار وزائرى المدينة .

محمد أمين ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٣) كامل جميل العسلى (دكتور) من آثارنا فى بيت المقدس ، ص ٣٩ - ٩٦ . عمان ١٩٨٣م .

٣ – الحمامات : ومنها حمام عين الشفا وحمام العين وحمام الباب الأسباط وحمام السلطان وحمام السيدة .. إلخ .

٤ – الأسبلة[١] ، تنتشر الأسبلة فى مدينة القدس ، ومن هذه الأسبلة سبيل السلطان قايتباى (صورة رقم ١) الذى يعد أشهر أسبلة القدس ، وهو يقع بالقرب من الحرم القدسى ، وقد سقف بقبة حجرية رائعة لفتت انتباه الرحالة الأجانب . ومن أسبلة القدس الأخرى : سبيل باب الناظر وسبيل باب الخليل وسبيل البديرى وسبيل باب خان الزيت ودرج الواد وسبيل باب حطة وسبيل السيدة مريم .

٥ – التكايا ، أشهرها تكية خاصكى سلطان ، التى شيدتها زوجة السلطان العثمانى سليمان القانون خرم المشهورة بروكسلانا ، هذه التكية كانت مجمعا معماريا ضخما ملحقا به منشآت عديدة منها مدرسة وأماكن لإقامة الصوفية وزوار القدس ومطبخ لإطعام نزلاء التكية وفقراء القدس . ولهذه التكية وقفية باللغة التركية مترجمة إلى اللغة العربية ضمن سجلات محكمة القدس الشرعية[٢] .

٦ – المساجد : كانت المساجد تنتشر فى القدس لأداء المسلمين بها الصلوات الخمس ، ومن أشهرها مسجد عمر بن الخطاب ، هذا المسجد أقيم فى الموضع الذى صلى فيه عمر بن الخطاب فى القدس ، بعد تسلمه المدينة ، وكان الخليفة عمر ابن الخطاب قد رفض الصلاة فى كنيسة القيامة حتى لا يقيم المسلمون مسجدا فى المكان الذى يصلى فيه خليفتهم ، احتراما من عمر لأماكن العبادة الخاصة بالديانات

---

(١) أسبلة جمع سبيل ، وهى من سبل الشيء أى جعله مباحا فى سبيل الله . والسبيل أصبح مصطلحا للوحدة المعمارية التى تعمل على توفير مياه الشرب للناس . والسبيل كمنشأة معمارية يتكون من صهريج لخزن المياه يعلوه حجرة لتسبيل المياه للمارة فى الشوارع . وكان تخزين المياه يتم إما عن طريق الأمطار كما هو الحال فى سبيل قايتباى بالقدس أو عن طريق ميلاه الآبار كما فى بعض أسبلة القدس أو عن طريق الأنهار كما هو الحال فى أسبلة القاهرة . محمد أمين مرجع سابق ، ص ٦٢ .

(٢) هذه الوقفية مدونة فى السجل رقم ٢٧٠ من سجلات المحكمة الشرعية فى القدس من ١٨ : ١٩ وهى مؤرخة بسنة ٩٤٦هـ .

الأخـــرى بالمدينة وإقرارا منه بحرية العبادة فى المدينة المقدسة من المسيحيين والمسلمين على حد سواء .

لقـــد عنى المسلمون بهذا الجامع منذ إنشائه ، فقد جددوا بناءه فى سنة ٥٨٩هـــ / ١١٩٣م ، فى العصـــر الأيوبى ،وأعادوا بناء مئذنته فى سنة ٨٧٠هـــ / ١٤٦٥م ، فى العصـــر المملوكى وهى مئذنة مربعة الشكل جميلة التكوين . وهذا المسجد ذو رمزية سياسية عالية إذ إنه يمثل السياسة التى اتبعها المسلمون فى المدينة تجاه الديانات الأخرى، إلى جانب رمزيته كمكان صلى فيه فاتحو القدس من المسلمين .

٧ - المـــدارس ، حرص أغنياء المسلمين وحكامهم على تشييد المدارس فى القدس خاصة فى الحرم القدسى والمنطقة المجاورة لها ، وهذه المدارس كانت تدرس فيها العلوم الشـــرعية والفلك والرياضيات والحديث الشريف وعلومه[١] ، ومن أبرز هذه المدارس المدرســـة الأشرفية التى شيدها السلطان قايتباى ، والمدرسة التنكزية التى شيدها الأمير تنكز الناصرى (صورة رقم ٢) ، المدرسة الجاولية التى شيدها الأمير علم الدين سنجر الجاولى .

هـــذه المنشآت وغيرها كثير بالإضافة إلى كنائس الطوائف المسيحية وأديرتها التى تكـــتظ بها المدينة[٢] ، ومنها كنيسة القيامة التى تضم قبر المسيح والكنائس المقامة على جوانب طريق الآلام . وللأقباط فى القدس العديد من دور العبادة أبرزها دير السلطان، وهـــو ملاصـــق لكنيسة القيامة من الناحية الجنوبية الشرقية ، وفيه كنيستان : كنيسة المـــلاك ، وكنيسة الحيوانات الأربعة . دير مار أنطونيوس ، ويعرف بالدير الكبير وهو ملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الشمالية الشرقية ، وفيه كنيسة القديس أنطونيوس ،

---

(١) عـــلى السيد على (دكتور) القدس فى العصر المملوكى ، ص ١٦١ / ١٦٦ ، دار الفكر للدراسات ، القاهرة ١٩٨٦م .

(٢) عـــن هـــذه الكـــنائس والأديـــرة : انظر عارف العارف ، تاريخ القدس ، ص ٢٣٩ : ٢٤٢ ، دار المعـــارف، القاهرة ١٩٥١م . عبد الحميد زايد (دكتور) القدس الخالدة ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م .

وكنيسـة الملكة هيلانة . وبالرغم من أن الحج من الشعائر المهمة لدى الأقباط إلا أن الكنيسـة القبطية أصدرت قرارا بتحريم أداء هذه الشعيرة طالما أن القدس تحت هيمنة الدولة الصهيونية .

إننا نستطيع من خلال وثائق القدس[1] وآثارها المعمارية التى مازالت باقية إلى اليوم الإسلامية والمسيحية رسم صورة متكاملة للقدس فى العصور المختلفة ، وتحديد ملكية أراضـيها خاصة ما يقع فى ملكية الأوقاف منها . ومما يساعد على ذلك أن الوقفيات وسـجلات محكمة القدس الشرعية تحدد حدود كل منشأة وأبعادها والطرق التى تقع عليها ومكوناتها والأراضى التى وقفت عليها إن كانت منشأة دينية أو خيرية أو منشأة اقتصـادية تدر ربعا . إن هذه الخريطة الطبوغرافية التاريخية ستساعد بلا أدنى شك فى اسـترداد الأراضى التى استولت عليها سلطات الاحتلال الإسرائيلى . سواء فى القدس أو فى بـاقى أراضى فلسطين المحتلة . لقد فهم اليهود أهمية وثائق القدس فقاموا فى ١٨ نوفمبر ١٩٩١م بالاستيلاء على بعضها من مبنى المحكمة الشرعية فى المدينة .

إن التصـور الإسـرائيلى يطرح القدس وكأنها مدينة خالية من البشر والعمران ، إحـدى دور النشـر الغربية عكست هذا التصور حين نشرت كتاب ديفيد روبرت (الأرض المقدسة) وديفيد رحالة اسكتلندى رسم العديد من اللوحات لمصر وفلسطين بين عامى ١٨٣٨ و ١٨٣٩ ، وسجل مع هذه اللوحات انطباعاته عن الأماكن التى مر بهـا . وإلى هـذا الحد فالأمر ليس فيه ما يثير أى تساؤل إلا أن دار النشر التى أعادت نشـر اللوحـات عام ١٩٩٠م وتعليقـاتها تمر دون أن يرفق بها سـرد تاريخى للأب كرولـلى لا يمـت لعـلم الآثار بصلة قدر ما يمت بصلة قوية إلى الرائج من روايات وخـرافات العصور الوسطى ، ففى وصفه لا وجود للعرب وإنما هناك التسمية الخطأ الـتى يتعمد بعض الأوروبيين استخدامها وهى (السرسيون) نسبة إلى السيدة سارة ، ولا يـرد ذكرهم إلا فى سياق أنهم سبب معاناة المدينة المقدسة – القدس – تلك التى لا ترتفع معاناتها إلا مع سيطرة الصليبيين عليها !

---

(١) عن وثائق القدس انظر على سبيل المثال : دكتور كامل جميل العسلى ، وثائق مقدسية ، ٤ مجلدات ، عمان ١٩٨٣م .

ويستند وصف الأمكنة إلى مخيلة كروللى المستمدة من روايات التوراة على رغم من إثبات الدراسات الآثارية حديثا شكوكا واسعة حول صحة روايات التوراة حتى إن العديد من علماء الآثار الغربيين بدأوا يصرفون النظر عن اعتماد التوراة كمرجع للأبحاث الأثرية فى فلسطين لتناقض ما جاء بها مع المكتشفات الأثرية الحديثة .

تصور لوحات ديفيد روبرت مشاهد من خارج المدن ، ولا تصور الحياة داخلها (صورة رقم ٣، ٤، ٥) ، وغالبا حين يصور البشر يصورهم فى حالة استرخاء ، وتظهر بلوحاته الأرض حول القدس على سبيل المثال وكأنها صحراء جرداء خالية من العمران والبشر ، هنا تتقدم دار النشر لتقدم لعبة ذكية لخدمة مقولة الأرض الخالية التى روجت لها الصهيونية . بأن أرفقوا مع كل لوحة من لوحات ديفيد صورة فوتوغرافية حديثة للموقع نفسه . وبالمقارنة يظهر الفرق الشاسع بين موقع يكاد يكون صحراويا فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر وبين الموقع نفسه المحتشد بالعمران فى أواخر القرن العشرين ، توحى هذه المقارنة بالأيدى البيضاء للصهيونية على القدس بصفة خاصة وفلسطين بصفة عامة .

الكتاب بهذا المعنى صورة أعيدت صياغتها لتلائم أغراض الحاضر الصهيونى كما يذكر الكاتب الفلسطينى محمد الأسعد ، ليس لأن شروحات كروللى تشير إلى (أرض إسرائيل) قبل قيام دولة بهذا الاسم فقط ، بل لأن المنحى كله يود أن يقول إن الأرض الخالية التى شاهدها روبرت لم تعد خالية .

وربما لهذا السبب عمد ناشرو الكتاب إلى تصديره بكلمة لعمدة القدس المحتلة تيدى كوليك ، وإلى وضع خرائط للأرض المقدسة تطابق بين الجغرافية الخيالية للتوراة والجغرافيا الطبيعية لفلسطين . هذا الكتاب يمثل واحدا من عشرات الكتب التى يتم بها تغذية الوجدان الثقافى الغربى ، وهو نموذج صافٍ لنظرة ثقافية غربية لا ترى فى المشهد الثقافى العربى غير مسار التاريخ التورانى .

الصورة هنا صورة قدس جديدة رأى اليهود أن تشيع فى العالم سواء من خلال الكتاب الذى يقدم مسار رحلة الحج التاريخية إلى مسيحيى العالم كما رآها رحالة فى

القرن ١٩، وكما رأتها دار النشر فى القرن العشرين ، هذه الصورة هى للقدس عاصمة إسـرائيل الأبدية ، التى سعى اليهود إلى تكريسها حتى أصبحنا نحن العرب نتقبل جانبًا مـن هذه المقولات كحقيقة صادقة لا تقبل النقاش ، فالقول بوجود قدسين : شرقية وغربية ، أشبه بالهراء، إذ لا توجد سوى قدس واحدة ، هى المدينة القديمة وضواحيها، التى هى عاصمة فلسطين المحتلة ، فمنشأ شيوع هذا الخطأ السياسيون ووسائل الإعلام، إذ كانت القدس حتى عام ١٩١٧م ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت الهوية العربية للقدس فى التغير خلال فترة الانتداب البريطانى الذى منحته عصبة الأمم لبريطانيا فى عام ١٩٢٢ عـلى فلسطين ، وترتب على ذلك زيادة هجرة اليهود لفلسطين ، وبدأت ديموغرافية القدس فى التغير ، وتضاعف عدد اليهود فيها فى الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٨م ليقفز من ثلاثين ألفا إلى حوالى مائة ألف بنهاية فترة الانتداب.

اغتصب اليهود القدس على مرحلتين فى المرحلة الأولى عام ١٩٤٨م استولوا على القـدس الجديـدة وضـموا إلـيها المدن العربية المحيطة بها ، كان يسكن هذه المدينة فلسـطينيون عـرب ويهود ، وقد سكنت الأغلبية من أهالى القدس العرب فى خمس عشـرة ضـاحية سكنية فى القدس الجديدة وامتلكت ثلاثة أرباع أراضيها ومبانيها ، وكانـت المـناطق العربية تفتقر إلى الحماية تماما ؛ ولذا احتلت إسرائيل ثلاث عشرة ضـاحية مـنها ، وبذا يكون من الخطأ أن نتصور أن اليهود فى ١٩٤٨ استولوا على الجزء الغربى اليهودى من المدينة بينما فرض العرب سيادتهم على الجزء العربى .

عمـل اليهود منذ أن استقرت أقدامهم فى المدينة المقدسة على إقرار سياسة الأمر الواقـع بها فنقلوا أجهزة دولتهم إليها ، وبالرغم من أن القدس تمثل من وجهة نظرهم «مدينة على الحدود فى كل شىء ، تنقصها القاعدة الاقتصادية الواسعة ، كما تنقصها الوفـرة فى الأرض»[1] . وقد أعلن بن جوريون فى الكنيست يوم ١٤ يونيو ١٩٤٨م «أن مسـألة إلحـاق القدس بإسرائيل ليست موضع نقاش ، فما يناقش هو تحقيق هذا الهـدف» أعلنـت القدس عاصمة لإسرائيل فى ٢٣ يناير ١٩٥٠م . وبعد هزيمة يونيه

(١) جاء ذلك فى صحيفة (لاحاف) الإسرائيلة فى عددها الصادر فى ١٩٦٦/٦/١٩م .

١٩٦٧م ، صار الإعلام الإسرائيلى يتحدث عن تحرير القدس وليس احتلالها وضمها . صارت المدينة بالكامل تحت سيطرة اليهود ومنذ ذلك الحين بدأ تهويد المدينة يأخذ بعدا متكاملا . وطرح هذا البعد من خلال مشروع القدس الكبرى ، والذى هدف إلى تطويق المدينة القديمة ذات الأغلبية العربية والمقدسات والآثار الإسلامية والمسيحية بنطاق لمدينة كبرى تذوب المدينة القديمة فيها ، وتعد حينئذ مجرد نقطة أو حى صغير داخلها . فقد تم إنشاء سبع عشرة مستوطنة إسرائيلية شمالى القدس وثمانى مستوطنات جنوبها . ربطت بينها شبكة طرق سريعة تتخلل المدينة الكبرى . بما فى ذلك أوتوستراد القدس . هذه الشبكة من الطرق ساهمت فى ربط المستوطنات الإسرائيلية وفى تطويق المدينة القديمة والقرى العربية حولها . على حين أنشئت جيوب استيطانية داخل القدس الشرقية بهدف تفريغها من سكانها العرب ومن طبيعتها العربية . وهو ما يعد تمزيقا للوحدة الديموغرافية للمدينة القديمة . لقد تم هذا على مراحل استهدفت المرحلة الأولى إحداث توازن ديموغرافى بين العرب واليهود . استغرقت هذه المرحلة السنوات من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٧م ، وبدأت أولى الخطوات العملية لهذه المرحلة حين حصل تيدى كوليك عمدة القدس العمالى على موافقة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل حينذاك على برنامجه لتوطين ١٢٠ ألف يهودى فى مدينة القدس الشرقية فى مدى عشرين سنة. وعندما عاد الائتلاف العمالى إلى الحكم عام ١٩٩٢م أطلق - بالتوافق مع عملية أوسلو - مشروعا عمرانيا لبناء ثلاثين ألف وحدة سكنية لإيواء ١٢٠ ألف يهودى فى القدس الكبرى . ومنذ عام ١٩٩٣ تجاوز تعداد اليهود فى القدس الشرقية تعداد العرب من مسلمين ونصارى حيث بلغ تعداد اليهود بها ١٦٥ ألفًا بينما بلغ تعداد سكانها العرب ١٦٠ ألفًا . وإذا كان تعداد سكان القدس الغربية اليهود اليوم أعلى من سكان القدس الشرقية - ٢٣٠ ألفًا مقابل ١٩٠ ألفًا - فإن هذه المعادلة مرشحة للانقلاب فى الأعوام القليلة المقبلة . فابتداء من ٢٠٠٣م سيكون تعداد السكان اليهود فى القدس الشرقية أعلى منه فى القدس الغربية ، وأغلب هؤلاء فى القدسين من اليهود الأرثوذكس المتعصبين .

هـؤلاء يرون فى القدس مدينة مقدسة بالنسبة لهم ، وواقع التراث اليهودى ينفى ذلـك ، فمـن المعروف أن أسفار موسي الخمسة لم يرد بها أى ذكر للقدس كمدينة مقدسة لدى اليهود ، ولم تذكر القدس سوى فى أربعة أسفار: سفرى صموئيل الأول والـثانى وسـفرى الملوك الأول والثانى ، ومن الواضح أن استشهادات اليهود الحالية جـاءت مـن سفرى صموئيل . وأكد علماء الديانة اليهودية بأن هذين السفرين من تأليـف النبى صموئيل نفسه والذى يعتبر آخر قضاة بنى إسرائيل . ويوجد فى السفرين ما يناقض فكرة كتابة صموئيل للسفرين المنسوبين إليه ، ففى الإصحاح ٢٥ من سفر صـموئيل الأول : (مـات صموئيل فاجتمع جميع إسرائيل وندبوه ودفنوه فى بيته) والمعـروف أن قصة بناء القدس ذكرت فى السفر الثانى . فإذا كان صموئيل قد مات قـبل أن يكمـل السـفر الأول فالسؤال الآن: من أكمل السفر الأول وكتب الثانى بأكمله[1] ؟

وإجابـة السـؤال هى : أن فى السفرين إضافات لاحقة أضيفت فيما بعد لخدمة الأغراض السياسية القومية لليهود ، خاصة أن كتبهم المقدسة لعنت القدس كمدينة فى مواضع عديدة .

كان اليهود قبائل من البدو الرحل وبالتالى لم يكن لديهم فكرة الاستقرار فى مكان محـدد وتشييد حضارة خاصة بهم فيه . ولم يعرفوا الاستقرار إلا عند دخولهم مصر ،

---

(١) هـناك تسـاؤلات حـول أصالة النص العبرى للتوراة ، خاصة أن هذا النص تعرض لأعمال الحرب والإبـادة بسبب الحروب الداخلية أولا والغزو الخارجى ثانيا . وحوالى أوائل القرن الأول الميلادى ، فكـر اليهود فى جمع الموجود من الأسفار المقدسة سواء المحفوظ منها فى الصدور أم المدون ، وقامت منافسـات بـين المدارس الشرقية البابلية من ناحية والغربية من ناحية أخرى ، إلى جانب ما أظهرته مخطوطـات وادى قمـران المكتشفة عام ١٩٤٧ ق. م بجوار البحر الميت وغيرها من المخطوطات ، ثم نجـد الـتوراة السامرية لا تتفق مع ما جاء فى الترجمة السبعينية التى ترجمت فى الإسكندرية إلا فى الثلـث، ويـرى الدكتور عبد الحميد زايد أن كتابا تطلب جمعه وتأليفه ألف عام لابد أنه مر بأدوار كـثيرة ، وهذا واضح من عدم وجود وحدة عضوية لأسفاره . جيمس بريتشارد ، نصوص الشرق الأدنى القديمـة المتعلقة بالعهد القديم ، ص٢ ، ترجمة وتعليق دكتور عبد الحميد زايد ، الهيئة المصرية للآثار ١٩٨٧م .

ولكـــن من الواضح أنهم احتفظوا بترابطهم القبلى فى أثناء وجودهم فى مصر ، وعند خروجهم منها لم يخرجوا بمفردهم بل خرج معهم من آمن من المصريين بدعوة موسى علـــيه الســـلام ، وخـــرجوا وهـــم محملـــون بالتأثيرات الحضارية المصرية . وأثبتت الاكتشافات الأثرية أن كتب اليهود تأثرت بشدة بالموروث القصصى والعقدى السابق لها سواء فى مصر أم فى العراق[1] .

هـــنا يجب أن نتوقف عند فكرة الهيكل لدى اليهود وهوبيت الإله ومكان العبادة الأساسى لديهم ، فباعتراف اليهود البدو الرحل أنه لم يكن لديهم مكان عبادة مقدس ثابـــت مـــنذ عصـــر موسى إلى عصر النبى سليمان عليه السلام . بل كانت لوحات

---

(١) يـــرى الدكـــتور فؤاد حسين فى مؤلفه (التوراة الهيروغليفية) : (إنه لا ينكر أن موسى عليه السلام جاءتـــه صـــحف وأنزلت عليه توراة إلا أن هذه التوراة العبرية والتى هى بين أيدينا ويؤمن اليهود بها وغيرهم ليست هى توراتنا التى أنزلت على موسى وبسبب جوهرى صحيح هو أنها جاءت بالعبرية ، والعـــبرية لم يعرفها موسى و لم يعرفها الإسرائيليون ، فموسى كما تذكر المصادر ولد فى مصر وعاش فى مصر وتكلم المصرية وتلقنها قراءة وكتابة وهكذا شأن العبرانيين المقيمين فى مصر .. ولو سلمنا أن موســـى وســـائر العبرانيين المقيمين فى مصر لم يتكلموا المصرية فإنهم لم يتكلموا العبرية بل الأرامية . ونحـــن نفهـــم تحت لفظ العبرية لغة الشعب الإسرائيلى التى اقتبسها من الكنعانيين عندما تسللوا إلى أرض كـــنعان حوالى آخر القرن الثالث عشر ق. م وهذه التسمية لغة عبرية لا تجد لها أثرا فى العهد القـــديم حيث ذكرت فى سفر أشعيا (سفر كنعان) أى لغة كنعان أو كما جاء فى سفر الملوك الثانى (يهوديـــت) أى اليهودية كما أطلق على اللغة العبرية فى المؤلفات المتأخرة اسم (لشون هقودش) أى اللسان المقدس . أما اللغة الكنعانية فهى الأم التى تفرعت عنها العبرية والموآبية الفينيقية ، قد حفظت لنا بعض خصائصها فى هذه المجموعة من المفردات التى وجدت فى طريقها إلى اللغة المصرية القديمة .. وقـــد أخـــذ الإسرائيليون هذه اللغة الكنعانية الأصل بعد اختلاطهم بالكنعانيين أيام يشوع بن نون ، ومن خلفه أعنى بعد وفاة موسى ، وهؤلاء الإسرائيليون هم الذين أغنوا اللهجة العبرية بهذه المفردات المصـــرية القديمة . من هنا نرى أن ظهور اللغة العبرية كان لاحقا جدا لا لموت موسى فحسب ، بل لدخـــول مـــن خرجوا معه من مصر إلى أرض كنعان ، فصحف موسى وتوراته لم تدون بالعبرية بل بالمصرية القديمة .

دكـــتور فؤاد حسنين ، التوراة الهيروغليفية ، ص ٥٧ وما بعدها . دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٨م .

الوصايا العشر توضع فى تابوت كان يعرف باسم تابوت العهد[١] ، هذا التابوت خصصت له خيمة عرفت بخيمة الاجتماع ، ترحل مع اليهود أينما رحلوا . فأين القداسة هنا لأى بيت أسس فى القدس كما يرى اليهود . بل جاء تأسيس الهيكل ليكون المكان المفضل لوضع تابوت العهد وليكون بيتا لرب اليهود نتيجة لتأثر اليهود بالحياة الحضرية فى مدينة القدس[٢] . شيد سليمان الهيكل على قطعة أرض غير معلومة فى القدس ، بل حينما شيد الهيكل الثانى لا يوجد دليل قاطع على تشييده فى موضع الهيكل الأول . وتاريخ بناء الهيكل فى القدس هو تاريخ تحول عبادة يسرابيل البدوية المتجولة إلى العبادة القربانية المركزية . وهنا يجب أن نلاحظ أن اليهود أثناء السبى البابلى صاغوا العديد من الثوابت التى يؤمنون بها اليوم كأرض الميعاد ، وقدسية مكان الهيكل فى محاولة منهم لمقاومة الذوبان فى أرض المنفى فى العراق .

---

(١) تابوت العهد أو تابوت الشهاد يقابلها فى العبرية (أرون هابريت يهوه) أو (تابوت يهوه صباءوت) جاء وصف هذا التابوت فى سفر الخروج ، وهو صندوق مصنوع من خشب السنط طوله ذراعان ونصف ذراع ، أى ثلاثة أقدام وثلاثة أرباع القدم ، محلى بالذهب من الخارج والداخل ، يقف عليه ملكان (كروبان) ناشرين أجنحتهما رمزا للعرش الإلهى (شيخناه) بين الشعب المختار . وأصبح التابوت ذاته رمزا للعرش الإلهى . ويقال إن الإله قد أخبر موسى بأنه سيقابله بين الملاكين . ولم يكن يسمح لأحد بأن يمس التابوت باعتباره محرما (تابو). وكان التابوت يحتوى على المن ، وعصا هارون، ولوحى الشريعة أو العهد ، ثم وضع بجانبه كتاب التوراة ، ولكن المن والعصا كانا قد اختفيا مع حكم سليمان. ومن الواضح أن فى هذا الوصف إسقاطا لقيم وتخيلات مرحلة مركبة لاحقة على مرحلة التيه التى كانت تتسم بالبداوة والبساطة . كما أنه بتطور اليهودية جرى تفسير وجود التابوت تفسيرا أكثر عمقا من التفسير السابق . فقد أصبح التابوت شيئا مقدسا بناه موسى تنفيذا لأمر الرب (ليضع فيه اللوحين اللذين كتب عليهما الوصايا العشر) ليحمله أعضاء جماعة يسرائيل معهم فى ترحالهم وقد حفظ سليمان التابوت فى قدس الأقداس فى الهيكل .

دكتور عبد الوهاب المسيرى ، الموسوعة ، ج ٤ ، ١٥٨ .

(٢) لقد تأثر اليهود فى بناء هيكلهم بالأقوام التى جاورتهم وخاصة الكنعانيين منهم ، فالدكتور فيليب حنا يذكر فى كتابه (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) الجزء الأول أن : زخارف الهيكل مستوحاة من النماذج الكنعانية المعاصرة ، هذا وكانت طقوس الهيكل وذبائحه تظهر الأساليب المتبعة عند الكنعانيين وحتى كلمة هيكل أصلها كنعانى . بينما يقول ويل ديورنت فى كتابه قصة الحضارة : إن طراز الهيكل المعمارى هو الطراز الذى أخذه الفينيقيون عن مصر وأضافوا إليه ما أخذوه عن الآشوريين والبابليين من ضروب الزخرفة .

بـــل إن الهيكل تعرض للإهمال وصار موضع ازدراء من اليهود فى مراحل تاريخية لاحقـــة . تعرضت القدس للهدم مرات عديدة فى التاريخ مما يجعل من الصعب تحديد موضـــع الهـــيكل اليهودى بها . بل طرأ تغيير على العهد القديم فى خلال فترة السبى البابـــلى يجعلنا نشك فى كثير من المسلمات اليهودية اليوم . أثبتها عالم الآثار الآكدى فريدريك ديليتش من خلال سلسلة من المؤلفات حول بابل والكتاب المقدس ، انتهى فيها إلى اعتماد العهد القديم إلى حد ما على العقائد البابلية .

تعـــد إعادة بناء الهيكل واحدة من أهم القضايا الخلافية بين اليهود الذين ينقسمون إلى صـــهاينة وغـــير صهاينة ، فغير الصهاينة يعارضون فكرة العودة وبالتالى إعادة بناء الهـــيكل . أمـــا الصهاينة فقضية إعادة بناء الهيكل قضية محورية لديهم والمتطرفون من الصـــهاينة يولون هذه القضية أولوية شديدة ، بحيث جعلت المنظمات الصهيونية هدم الآثار الإسلامية الموجودة فى هذا الموقع ، من أهم أهدافها .

وقـــد قامـــت عـــدة محاولات من جانب الجماعات الصهيونية تستهدف تفجير الأماكن المقدسة الإسلامية فى القدس، أو حرقها ، بل ضبطت محاولة لإلقاء قنبلة عليها من الجو. وهناك منظمة يهودية تسمى (أمناء جبل الهيكل) التى يمولها المليونير الأمريكى (المسيحى الأصولى) ترى رازنهوفر ، جعلت بناء الهيكل الثالث هدفها الأساسى ، وقد أسســـت مدرســـتان تلموديتان عاليتان بالقرب من حائط المبكى لتدريب مئتى طالب عـــلى شـــعائر العبادة القربانية وهى الشعائر الخاصة بالهيكل . وإحدى هذه المدارس، معهـــد الهيكل (يشيفات هبايت) ، وظيفتها الأساسية محاولة التعجيل ببناء الهيكل . وقـــد بدأت هذه المدرسة فى إعداد أدوات العبادة القربانية التى يبلغ عددها ١٠٣ ، مع العلم بأن الأدوات التى تم الانتهاء منها وضعت فى متحف . وقد عقد فى سنة ١٩٩٠م مؤتمر يضم اليهود الذين يعتقدون أنهم من نسل كهنة الهيكل . ويوجد فى فندق الهيكل فى القـــدس مجســـم مصغر للهيكل . وينوون أن يبنوا مجسما آخر أكبر حجما يتكلف مليون دولار يتم جمعها حاليا من يهود العالم .

وقـــد قامـــت جماعة أمناء الهيكل بوضع حجر الأساس للهيكل الثالث فى احتفال تحت إشراف رئيس الجماعة المدعو جرشوم سالمون . وقد حضر الاحتفال الذى جرى

فى منتصف شهر أكتوبر عام ١٩٨٩م ، كاهن يرتدى ملابس كهنوتية خاصة مصنوعة مـن الكـتان المغزول باليد من ستة خيوط مجدولة تم إعدادها فى معهد الهيكل . وقد اسـتخدموا فى الاحتفال بعض الأوانى الشعائرية ، وبوق الشوفار ، وأدوات موسيقية مثل الأوكورديون . أما حجر الأساس نفسه ، فحجمه متر مكعب ، وقد قام حفاران يهوديان من القدس بإعداده دون استخدام أية أدوات حديدية (كما تتطلب الشعائر)، وقـد حـاولوا الوصـول بالحجر إلى ساحة حائط البراق عند حائط المبكى ، ولكن الشـرطة الإسرائيلية تصدت لهم فحمل الحجر إلى مخزن الحفارين وأودع فيه . وتتجه النية إلى زراعة حديقة حوله . ويساند جماعة أمناء جبل الهيكل بعض أعضاء المؤسسة الدينية فى إسرائيل .

ورغـم هذا الانقسام ، بشأن إعادة بناء الهيكل ، فإننا نجد أن بعض الأطروحات التى صنفت فى الماضى باعتبارها دينية مهووسة ومتطرفة ، صارت مقبولة بل أصبحت جزءا من الخطاب السياسى الصهيونى ، أو ضمن برامج الأحزاب المعتدلة ، ولذا فليس من المستبعد أن نجد جميع الصهاينة (الأقلية المتدينة والأغلبية الملحدة) تؤيد كلها بعد قلـيل إعادة بناء الهيكل باعتباره أمرا أساسيا للعقيدة الصهيونية لا تكتمل بدونه[١] . ويـرى المسـيحيون الأصـوليون أن بناء الهكيل هو الشرط الأساسى للعودة الثانية للمسـيح. وهـم ينظرون إلى قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م تأكيدا لنبوءات التوراة حول نهاية العالم وإحلال مملكة جديدة مع المجىء الثانى للمسيح بعد عودة اليهود إلى الأرض المقدسـة . وانـتظرت المسيحية الصهيونية اكتمال خطة الرب بعد تأسيس إسرائيل ، وبالتالى كان انتصار إسرائيل فى حرب يونيه ١٩٦٧م ، واحتلالها لبقية أرض فلسطين وبخاصـة القدس ، إضافة إلى أراضٍ عربية أخرى ، تأكيدا على أن خطة الرب تكتمل وأن النبوءات التوراتية تتحقق وأن نهاية التاريخ أصبحت قريبة[٢] .

---

(١) الدكتور عبد الوهاب المسيرى ، الموسوعة ، ج٤ ، ص ١٦٩ .

(٢) بجدى شندى ، قبل أن تضيع القدس ، ص ٧٧ / ٩٠ . القاهرة ١٩٩٢ .
رضا هلال ، المسيح اليهودى ونهاية العالم ، المسيحية السياسية والأصولية فى أميركا ، ص ٨٣: ١٦١ . مكتبة الشروق ٢٠٠٠ .

وأنتجت المنظمات الأصولية الأمريكية العديد من الأفلام والبرامج التى تروج لهذه الرؤية وأبرزها ما رعى إنتاجه القس والواعظ الأمريكى التليفزيونى مايك إيفانز ، ففى بـــرنامجه الاستعراضى (إسرائيل : مفتاح أمريكا للبقاء) الذى كان يبث فى ٥٠ محطة تليفزيونية عبر ٢٥ ولاية ، لمدة ساعة يوميا ، عام ١٩٨٣ ، تحدث إيفانز عن أن الرب أمره بوضوح برعاية إسرائيل ، ولذا قام بإنتاج هذا البرنامج الخاص بإسرائيل ، وقال : (إن إسرائيل تلعب دورا حاسما فى المصير الروحى والسياسى لأمريكا ، كما أن تخلى إسرائيل عن الضفة الغربية سوف يجر الدمار على إسرائيل وعلى الولايات المتحدة من بعدهـــا) ونشـــر إيفانز فى ديسمبر عام ١٩٨٣ ، إعلانا فى صفحة كاملة فى صحيفة (نـــيويورك تايمز) جاء فيه (إن بقاء إسرائيل حيوى لبقائنا ، وإن الإيمان بإسرائيل يعزز موقـــف الولايات المتحدة الأمريكية) . وأنتج فيلما عنوانه : (القدس عاصمة داود) ربط فيه بين أمريكا وعاصمتها واشنطن والقدس .

إن الـــبعد الإســـلامى الذى يحمل خطابا حضاريا نفتقده اليوم فى مخاطبة الآخرين للتعريف بقضيتنا ، بالرغم من إجادة أجدادنا استخدام هذا الخطاب فى المدينة المقدسة القـــدس ، فقـــد نجـــح عبد الملك بن مروان فى ظل الصراع الدولى بينه وبين الدولة البيزنطـــية من خلال اهتمامه بالمقدسات الإسلامية فى القدس فى إيصال رسالة إعلامية وحضـــارية وتراثـــية إلى الدولة البيزنطية . ومازلنا إلى اليوم نستفيد من هذه الرسالة . ولكـــن لم نـــنجح فى استيعاب الدرس الخاص بها . جاءت هذه الرسالة ضمن مخطط عبد الملك لإعمار الحرم القدسى الشريف (صورة رقم ٦) .

تعـــد قبة الصخرة والحرم القدسى الشريف حولها أبرز العمائر التى تحمل مضامين حضارية . يعود تشييد القبة إلى العصر الأموى ، الذى شهد نزاعا حضاريا بين الدولة الأمويـــة والدولـــة البيزنطية على السيطرة على العالم القديم . واتخذ هذا النزاع صورا مـــتعددة . مـــنها تعريب طراز أوراق البردى التى كانت تصنع فى مصر[١] . وتعريب للـــنقود فى إطار سياسة رسمها عبد الملك بن مروان الهدف منها إرضاء الشعور الدينى

---

(١) ســـعيد مغـــاورى (دكـــتور) البرديات العربية فى مصر الإسلامية ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٦م .

والسياسى للمسلمين ، ورغبته فى إعادة حق ضرب النقود إلى الخلافة فى شخص الخليفة كمظهر من مظاهر الملك والسلطان بعد أن انتزع حق ضرب النقود كثير من الولاة والثائرين فكان الإصلاح النقدى سببا هاما فى القضاء على الفوضى السائدة تحقيقا للاستقرار السياسى ، فضلا عن أن النقد العربى الخالص يعبر عن سيادة الدولة وخروجها من تحت عباءة النفوذ الاقتصادى البيزنطى . لهذا اتجه عبد الملك إلى الاستقلال الاقتصادى بتعريب النقود ، فضلا عما يتيحه هذا من توحيد النظام النقدى فى دولة تمتد عبر مساحات شاسعة من الأراضى[١] .

اتجه عبد الملك بن مروان فى إطار هذا المخطط الشامل إلى العمارة التى ترمز إلى سيادة الدولة واتجاهها الفكرى ، ففى القدس تبنى مشروعا ذا طابع سياسى دينى حضارى ، يرتكز على الاهتمام بعمارة الحرم القدسى الشريف خاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، لارتباط هذا الحرم بالعقيدة الإسلامية فهو أول القبلتين ، وفيه صلى الرسول بالأنبياء وإليه كان إسراؤه ومنه كان معراجه[٢] .

ولما كانت عمارة الحرم آنذاك بسيطة لا تتناسب مع ما حولها من كنائس ، خاصة كنيسة القيامة المقدسة لدى المسيحيين ، ومع ما قد تحدثه عمارة الكنائس فى نفوس بعض المسلمين ، ورغبة عبد الملك فى إثبات الهوية الحضارية الجديدة للمدينة[٣] ، تبنى مشروع عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى .

ويلفت الانتباه من هذا المشروع قبة الصخرة (صورة رقم ٧) ، أبرز آثار الحرم، فهى تعد أول عمل معمارى واع لعظمته بل متباه بها ، انتهى من بنائها عام ٧٢هـ/ ٦٩٢م . وهى ترى من مسافات بعيدة ، وهى مبنية فوق صخرة مقدسة ، حولها ممران يدوران حولها بمسقط مثمن ، شامخة فى الهواء فى مركز الحرم القدسى على كل من تلال القدس . وهذه القبة ذات التصميم الهندسى الذى يصل إلى حد الجمال والروعة

---

(١) رأفت النبراوى (دكتور) قصة أول نقود عربية فى الإسلام ، ص ٥٨ : ٦٢ . مجلة القدس ، العدد ١٣٤ / ١٩٨٨م .

(٢) الزركشى محمد بن عبد الله ، إعلام الساجد بأحكام المساجد ، ص ٢٧٥ : ٢٩٨ . تحقيق أبو الوفا المراغى ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٤٠٣هـ .

(٣) يوسف شوقى (دكتور) قبة الصخرة ، ص ١٦ ، وزارة الإعلام سلطنة عمان ١٩٨٧م .

كانــت مزخرفة بالفسيفساء على كل سطوحها داخلا وخارجا ، وكانت ومازالت تــبهر الــرائين حــتى إن كثيرا منهم لم يملكوا أنفسهم من إضفاء كل صفات البريق والــلمعان علــيها ، مهملين فى الوقت نفسه ، للأسف ، أن يخبروا ماذا كانت تلك اللوحــات الفسيفســائية تمثل ، ولا نستطيع أن نحكم على موضوعات فسيفساء القبة حكمــا كلــيا لأن جــزءا كبيرا من الفسيفساء الأموية قد فُقد ، ولكننا نملك بعض الشواهد على هذه الموضوعات من فسيفساء الرواق المثمن الداخلى ، يمكن عند ربطها بدقة عمارة القبة الانتهاء إلى الرمزية السياسية لها .

مخطــط القــبة ليس غريبا بالدرجة التى يبدو بها اليوم ، إذ يرى بعض المستشرقين وعــلماء الآثار العرب أن تخطيط قبة الصخرة ذو أصل رومانى يعرف بمخطط ضريح الشــهيد ، وهــو عبارة عن الطواف حوله ، وظيفته إذن طقوسية طوافية . وهو لهذا السبب استعمل فى الفترة المسيحية المبكرة فى بلاد الشام، وفى مجال الأراضى البيزنطية، فى عمــارة العديد من الكاتدرائيات المهمة ، ككاتدرائية بصرى فى حوران التى مازال بقاياهــا قائمة إلى اليوم ، وكنيسة القيامة فى القدس نفسها ، وهما الاثنتان تعودان إلى فترة الحكم البيزنطى فى عهد جوستينيان (حكم ٥٢٧ - ٥٦٥) . ولكن قبة الصخرة أكثر هذه المخططات توازنا هندسيا ، وهى دون أى شك قد قصد بها التمايز والتنافس مــع قبة قبر المسيح فى كنيسة القيامة التى تطل عليها من أعلى جبل موريا[١] . ويرى الدكــتور فــريد شافعى أن تخطيط قبة الصخرة لا يطابق أى تخطيط لنماذج العمائر البيزنطــية فى مــنطقة بلاد الشام أو فى غيرها . بل هو تحوير واقتباس منها ليتفق مع الغــرض الذى شيد من أجله البناء وهو أن يحيط بالصخرة ، وهى البقعة المباركة التى عــرج منها محمد ﷺ إلى السماء حين أسرى به ربُّه من مكة المكرمة إليها . ولذا فقد روعى فى التخطيط أن يوفر غرض تعيين تلك البقعة ، ثم غرض الطواف حولها للتبرك بهــا . وهــو أمر يختلف تماما عن الذى شيدت من أجله تلك العمائر الدينية البيزنطية

---

(١) ناصــر الرباط (دكتور) نحو إعادة تقييم للثقافة الفنية الأموية ، ص ٩٩ : ١٠٠ ، مجلة أبواب ، ١٩، دار الساقى ، ١٩٩٩م .

ذات التخطيطات المشابهة . التى عادة ما توجه نحو الحنية ، ولا تتعدد فيها المداخل كما تعـددت فى قـبة الصخرة ، ومهما يكن من أمر ، فإن تخطيطات تلك العمائر الدينية البيزنطية ليست ابتكارات بيزنطية أو سورية ، بل كانت فى الأصل تخطيطات رومانية دينية سابقة ، أخذت بدورها من أصول إغريقية[1] .

وتعد فسيفساء قبة الصخرة من الناحية الحرفية امتدادا للفسيفساء البيزنطية فى بلاد الشـام والدولـة البيزنطـية ، ولها العديد من الأمثلة فى كنائس بلاد الشام والعاصمة القسـطنطينية ، وأشهرها أيا صوفيا ، وكنائس سالونيكا الإغريقية ، غير أن فسيفساء قبة الصخرة ذات مواضيع معقدة فى أصولها وكيفية اختيارها ومعانيها ، فعلى خلاف الـنماذج البيزنطـية التى تتشارك وإياها فى التقنية ، تركز لوحات قبة الصخرة على المواضـيع اللاتمثيلية ، وتحصرها بالكتابات القرآنية والتسجيلية وبالتوريق والزخارف النباتـية ، بعـض الأشـكال الغامضـة اليوم ، والتى ربما تكون تحويرا لتيجان ملوك ومستلزمات وظيفتهم من صولجانات ومجوهرات وما شابهها (صورة رقم ٨، ٩) .

إننا هنا أمام تساؤلات عديدة تطرح نفسها نحو هذا المبنى ورمزيته . إن التوجهات السياسية والإعلامية والعقيدة تبرز فى الآيات القرآنية المختارة بدقة ، وفى تركيز وضع صور تيجان الملوك فى الرواق حول القبة وبمواجهتها . فالنص القرآنى يحتوى على كل الآيـات التى تتكلم عن المسيح فى موقعه الإسلامى المختار كنبى مرسل[2] . والتيجان تـبدو أشـبه ما تكون بالتيجان الحقيقية للملوك المغلوبين ، التى كان أباطرة الرومان والبيزنطـيين يضـعونها فى معـابدهم وكنائسهم كعلامات نصر ورمز إيمان بأفضلية

---

(١) فـريد شافعى (دكتور) العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٤٠، ٤١، ٧٧، ٧٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٩٤م .

(٢) نشـر أولج جـرابار هذه النصوص كاملة فى كتابه عن العمارة المبكرة فى القدس ، وهى فى مجملها نصـوص تشير إلى التوحيد وإلى أن محمدًا رسول الله وإلى أن إلهه لم يكن له ولد وتدعو النصارى إلى عبادة الله عبادة صادقة .

- New p. 184, 185, 186, Jerusalem, olg Graybar, The Shape of The Holy Islamic Jersey, 1996.

معتقدهم. وبالتالى يمكن هنا أن ننظر إلى هذين العنصرين الزخرفيين على أنهما بالنسبة لبناة قبة الصخرة وسيلتا دعاية لدينهم ولدولتهم المنتصرين ، خاصة إذا تذكرنا أن قبة الصخرة قد بنيت فى القدس التى كان أغلب سكانها المسيحيين مازالوا يدينون بالولاء لإمبراطور القسطنطينية البيزنطى ، فى وقت كانت الدولة الأموية فيه فى خضم صراع مرير مع البيزنطيين فى شمال بلاد الشام[١] .

فالقبة مبنى معمارى ذو رمزية سياسية ينبع فى القدس عن رغبة الدولة الأموية فى بث حضارة جديدة تعبر عن أتباع الدولة المقيمين فى المدينة ، ويوجه رسالة إلى الآخرين عن مدى قوة الدولة ومضمون رسالتها . وظلت قبة الصخرة بلونها الذهبى ، رمزا لمدينة القدس ، يعلوها الهلال الذى يوازى اتجاه القبلة . وعندما استولى الصليبيون على القدس نزعوا الهلال من فوق قبة الصخرة ، وأقاموا مكانه صليبا من الذهب . وعندما استرجع صلاح الدين القدس مرة أخرى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م . تسلق بعض المسلمون القبة واقتلعوا الصليب، وأعادوا الهلال إلى مكانه[٢] . هذا شكل الموقع الذى شيدت عليه قبة الصخرة جانبا من الرمزية السياسية (صورة رقم ١٠) .

إن هذه الرسالة تحتم علينا تقديم بعض المقترحات لمقاومة التهويد الإعلامى والثقافى لمدينة القدس وتراثها منها :

- يجب دراسة الدراسات الإسرائيلية ودراسات المعهد الأمريكى للآثار فى القدس الخاصة بتاريخ وتراث القدس وفلسطين . وتخصيص منح للأثاريين الشبان لدراستها ، مع التركيز على عصور ما قبل التاريخ التى يحورها اليهود اليوم لمصلحتهم .
- يجب دراسة طبوغرافية القدس عبر العصور من خلال الآثار والوثائق التاريخية ، حيث إن ما أنجزه العرب فى هذا المجال غير دقيق وغير كاف . مع تقديم دراسات وافية لتراث القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث .
- ضرورة تعزيز المواقع العربية والإسلامية على الإنترنت بهذه الدراسات .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٢) يوسف شوقى (دكتور) مرجع سابق ، ص ٦٤ .

- توجـيه نداء إلى اتحاد الجامعات العربية لتخصيص الموسم الثقافى الحالى فى الجامعات العربية للقدس . وكذلك إعداد كتيب للتلاميذ فى المدارس العربية عن القدس يكون ضمن مقررات مادة التاريخ .

- تكلـيف كـل من منظمة العواصم والمدن الإسلامية ، ومنظمة المدن العربية بإقامة مؤتمـر عالمى فى غزة أو إحدى مدن الضفة الغربية للقدس وتراثها المعمارى كوسيلة لبيان أهمية هذه المدينة بالنسبة للعرب والمسلمين .

- يجـب أن تتضمن بنود مفاوضات السلام مع إسرائيل بنودًا خاصة بالمناهج التعليمية فى المدارس والجامعات الإسرائيلية .

- كمـا يجـب أن تتضـمن بنودًا خاصة بقانون العودة لليهود وطبيعة منح الجنسية الإسرائيلية .

* * *